

صورة البدو في الكتابات الاستشراقية

جوستاف لوبون أنموذجاً

عمر مصطفى لطف^(١)

تعتمد الكتابات التاريخية الحديثة عند الحديث عن البدو وتاريخهم، على كتابات الرحالة والمستشرقين الغربيين. وللأسف لا توجد - تقريباً - رحلات قام بها رحالة عرب إلى الصحراء المنتشرة في العالم العربي^(٢)، نستطيع أن نستمد منها وصفاً للبدو وعاداتهم وتقاليدهم، وفي الوقت ذاته نستطيع أن نقارنها بكتابات الرحالة والمستشرقين عن البدو، لتعرف على المغالطات التي دسها هؤلاء عنهم، الذين نعتبرهم أحد الجماعات المهمشة في تاريخ العرب وحضارته.

ويرى بعض المؤرخين العرب أن المستشرقين كتبوا مؤلفات تتضمن انطباعات ومشاهدات أبرزت الجانب السيئ فقط للبدو، وأطلقوا أحكاماً بعضها شديدة القسوة، وأن كتبهم كانت بغرض استعماري. وربما نستطيع القول إن هؤلاء المستشرقين لم يستطيعوا فهم الظروف شديدة القسوة التي عاش فيها البدو، والحياة الجافة والبعيدة عن المدنية والحضارة، وعدم وجود فرصة أو إمكانية لديهم لتأمين سبل عيشهم اليومي من طعام وشراب بدون انتظار رحمة السماء، الأمر الذي جعلهم يكذبون وينهبون، فهي مجرد انطباعات ومشاهدات وتسجيل للنتائج بدون مناقشة أو دراسة الأسباب التي أدت إليها. وأيضاً اختلاف الثقافات والنظرية السطحية البسيطة في مراقبة حياة الآخر ورؤية طريقة حياته التي تقيم هذا الآخر من وجهة نظرها واعتماداً على قيمها وأسلوب حياتها ومستواها الحضاري.

(١) باحث أكاديمي - معهد البحوث والدراسات التربوية - جامعة القاهرة.

(٢) نجد وصفاً دقيقاً وتحليلاً سيكولوجياً وأنتروبولوجياً من قبل مؤسس علم الاجتماع العربي ابن خلدون، حيث درس عادات وتقاليدهم البدو في عصره (القرن الثامن الهجري) وحللها، انظر بالتفصيل بحث «مفهوم البدوة عند ابن خلدون» لمصطفى لبيب عبد الغني، مؤتمر «البدو في الوطن العربي»، المجلس الأعلى للثقافة والجمعية المصرية للدراسات التاريخية، إبريل ٢٠١٠م. ونجد هناك أيضاً مؤرخنا الكبير تقي الدين المقرئ يفرّد كتاباً خاصاً بالعربان (البدو)، وهو كتاب «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب»، والذي يعد حجة في موضوع استيطان القبائل من العرب بمصر، من دخول عمرو بن العاص وحتى حياة المقرئ (العصر المملوكي).

وإذا تحدثنا عن صورة البدو في الكتابات الاستشراقية في القرن التاسع عشر الميلادي ، نجد لدينا عدة كتب ورحلات كتبها مستشرقون ورحالة عظام. هناك السويسري جون لويس بوركهارت ، الذي قام برحلة إلى شبه الجزيرة العربية في عام (١٨١٤م) ، متنقلا بين المدينة المنورة والطائف وجدة وينبع ، وقابل محمد علي باشا في الطائف ، حين كانت جيوشه تحارب الدولة السعودية الأولى.

وقد دون بوركهارت - بشكل دقيق- ملاحظاته ومشاهداته في عدة كتب ، وما يهمننا هنا كتابه «ملاحظات عن البدو والوهابيين» ، وهو من جزأين : أحدهما دراسة وصفية تحليلية لعادات القبائل البدوية في شبه الجزيرة العربية وأعرافها وتقاليدها ، والجزء الثاني يسرد فيه تاريخ الوهابيين ، مستخدما مصادر مكتوبة وشفوية للتأريخ. وقد أطلق بوركهارت في كتابه العنان لمشاعره الصادقة بلغة سليمة سمحت لبعض المصطلحات والتراكيب العربية بالتوغل فيها والنفاذ إليها. ولكننا نلاحظ هنا اقتصاره على بدو بلاد الحجاز فقط ، في الأماكن التي زارها^(١).

وهناك هاري سينت فيلبي ، والذي قام بمغامرة ورحلة خطيرة لعبور الربع الخالي ، وذلك في الثلث الأول من القرن العشرين ، ووصف البدو الذين قابلهم في ثنايا كتابه ورحلته المشوقة هذه ، ويقتصر فيلبي في كتابه على البدو الذين صادفهم في الربع الخالي فقط^(٢). وهنا نأتي لأهم المستشرقين في القرن (١٩م) ، وهو الفرنسي جوستاف لوبون ، والذي لم يؤرخ ويكتب معتمدا على المصادر المكتوبة ، ولكنه قام برحلات لإضفاء المزيد من الواقعية والصدق على كتاباته المختلفة.

ولد جوستاف لوبون في بلدة نوجان لى روتر بفرنسا عام (١٨٤١م) ، وبرغم دراسته للطب في باريس وحصوله على شهادة الدكتوراه عام (١٨٦٦م) ، فإنه تميز منذ شبابه بالاشتغال بالبحث العلمي ، وكان شغوفًا بالسفر والترحال ، فقام برحلة طويلة جاب خلالها أنحاء أوروبا ، ثم زار شمالي إفريقيا وبلاد الشرق الأوسط ، ووضع على إثرها كتابه الشهير

(١) ترجم صبرى محمد حسن كتابات جون لويس بوركهارت إلى اللغة العربية ، ومنها كتابه «ملاحظات عن البدو والوهابيين» في جزأين ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠٠٧م. وكتابه الآخر «ترحال في الجزيرة العربية» في جزأين أيضا ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠٠٨م.

(٢) ترجم صبرى محمد حسن كتاب هاري سينت فيلبي تحت عنوان «الربع الخالي» ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠٠٨م.

«حضارة العرب» عام (١٨٤٤م)، الذي عُرف به بين قراء العربية، بعد ترجمته على يد الراحل عادل زعيتر، ونلاحظ أن كتاباته عن تاريخ العرب وتقاليدهم وعاداتهم، كانت عن معاشة مباشرة بهم، ولم يعتمد فقط على المراجع الأوروبية ذات الصبغة التعصبية، في بعضها، إنما اعتمد في الأساس على مصادر أصلية أو أوروبية منصفة.

وقبل وضعه لكتابه عن الهند «آثار الهند» و«حضارات الهند»، قام جوستاف لوبون بزيارة لتلك البلاد، وضمّن هذين الكتابين الصور الفوتوغرافية التي التقطها إبانها.

لأنه شغوف بدراسة الحضارات القديمة والحديثة، ودراسة ظاهرة الاحتكاك الحضارى وآثاره النفسية من خلال احتكاك الشعوب المستعمرة بحضارة غريبة عن حضارتهم فُرِضت عليهم بالقوة، فقام لوبون بالبحث في علم الأجناس، فوضع كتابه «الإنسان والمجتمعات ومصدرهما وتاريخهما» في عام (١٨٨١م)، والذي تتبع فيه تطور الإنسان منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، وكتابه الآخر «القوانين السيكلوجية لتطور الأمم» عام (١٨٩٤م)، والذي ترجمه أحمد فتحى زغلول بعنوان «سر تطور الأمم»، ويرى فيه أن هناك قوانين ثابتة تسيّر المدنية في كل أمة بمقتضاها، أهمها «نسيج روحها»، وأن ذلك هو الذى يميز أمة عن أخرى، وليست المؤسسات. ويرى لوبون أيضا أن للمعتقدات الدينية تأثيرا مهما في تطور المدنية.

ولم يكتف جوستاف لوبون بدراسة الحضارات العظمى (العربية - الهندية - اليهودية) خاصة، والمجتمعات الإنسانية عامة، لكنه اهتم بعدة علوم أخرى، مثل علم النفس الاجتماعى، حيث صنف فيه مؤلفه «سيكلوجية الجماهير»، متحدثا عن مصطلح جديد «الجماهير السيكلوجية» حيث تتشكل روح جماعية ذات سمات محددة فى ظروف معينة بفعل العدد والعدوى الذهنية والإيحاء. وفى مجال التاريخ، له كتاب «فلسفة التاريخ»، ويحاول من خلاله تغيير نظرتنا إلى الوقائع والأحداث وأصل الإنسان، ويتضمن منهجا لتمثل حوادث الماضى والبحث عن عللها، ويساهم فى وضع فلسفة للطبيعة، ومن ثم للتاريخ تختلف عما سبقها اختلافا بينا. وفى مجال التربية، له كتاب «روح التربية» الذى ترجمه عميد الأدب العرب الدكتور طه حسين، ويرى فيه أن التعليم هو وسيلة إلى تكوين نفس الفرد وإلى تكوين المثل العليا للأمم، وقد تتغير النظم التعليمية بتغير البيئة وأطوار الجماعات، ولكن هذا التغير لا يمس هذه النظم إلا فى دقائقها، فأما جوهر التعليم فواحد لا يتعدد، وإن أخذ صورا مختلفة وأعراضا متفاوتة. وفى علم الاجتماع، له كتاب «روح الاجتماع».

إذن نحن أمام عالم موسوعي، له بصمات علمية مهمة في عدة علوم، اهتم بها الغرب، مثلما اهتم العرب، فاضطلعت شخصيات أدبية مهمة بنقل أفكاره من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، مثل الأديب طه حسين، والأستاذين أحمد فتحي زغلول (شقيق الزعيم الوطني سعد زغلول)، والفلسطيني عادل زعيتر.

ولكن أهم الكتب التي عرف بها العرب جوستاف لوبون، هو كتابه الضخم «حضارة العرب»^(١)، وهو الجامع لعناصر الحضارة العربية وتأثيرها في العالم، مفصلاً لعواملها، باحثاً في قيام الدولة العربية، وأسباب عظمتها وانحطاطها.

ويلخص لوبون في مقدمة كتابه المنهج الذي اتبعه في وضع هذا الكتاب، فيقول: «من المبادئ العامة: الوجود في وقوع الحوادث التاريخية، والصلة الوثيقة بين الحوادث الحاضرة وحوادث الماضي.

من مواد التأليف: آثار الشعوب التي هي موضوع الدرس وتصويرها تصويراً صادقاً، ووصف العرق جسماً وعقلاً، والبيئة التي نشأ فيها العرق، والعوامل التي خضع لها، وتحليل لعناصر الحضارة، أي للنظم والمعتقدات والعلوم والآداب والفنون والصناعات، وتاريخ لتكوين كل واحد من هذه العناصر، أي عرض صورة واضحة عن الحضارة العربية من خلال هذه المواد والمبادئ.

وتناول المستشرق جوستاف لوبون بدو العالم العربي في كتابه، حيث قسم العرب - من خلال التقليد وطرق المعيشة - إلى أهل حضر وأهل بدو، فالبدو لهم تقاليد وعادات لا تزال عندهم منذ آلاف السنين، وهم مقسمون إلى قبائل ترحل من مكان إلى آخر سعياً وراء الكلاً، أما أهل الحضرة من العرب، فهم على العكس، يتغيرون بتغير الأماكن والشعوب التي يخالطونها. ويؤكد لوبون على ضرورة مراعاة هذا التقسيم الجوهري حين البحث في التاريخ العربي.

وينقسم البدو في العالم العربي أيضاً إلى قبائل صغيرة، تخضع كل واحدة منها لشيخ أو أمير، ويقتصر سلطان هذا الشيخ أو الأمير على قيادة المحاربين في الغزوات وتقسيم الغنائم والصدارة في بعض الحفلات.

أما عن عيوب البدو ومحاسنهم، فتنشأ عن طراز حياتهم، فهم يحبون الحرية حبا جما، وهم يكرهون أبناء المدن ويعدونهم من الأرقاء، وحافظ البدو على هذه الحرية بمرور السنوات، ولم يقدر الغزاة أن يستعبدهم، بينما يقع القهر على البدوى من بدوى آخر.

(١) ينفرد نجيب العقيقي بوصفه لهذا الكتاب، بأنه لا قيمة له، برغم إشادة مئات العرب والغربيين به.

ومن ناحية أخرى فالبدو فطروا على الرغبة فى النهب وحب القتال ، وأصبح بعضهم قُطاع طرق ، فألقوا الرعب فى قلوب جيرانهم المتمدنين ، ولكنهم فى الوقت ذاته كانوا محاربين أشداء فى العصور الإسلامية ، وأصبح حبهم للنهب حُبا للفتح . وامتازوا أيضا بالكرم ، فالكرم أفضل فضائل البدو ، أما التفاخر والمنافسة بينهم ، فكان سببا فى خسرانهم بعد أن كان حافظا لهم إلى العمل الصالح فى البداية .

ويستخف البدو بسلطان الحضارة ، ويفضلون عليها حياة البادية ، ويعقب لوبون على ذلك ، قائلا : «ولا تخلو حياة البادية من السحر والجمال مع ذلك ، ولا أتردد ثانية فى ترجيحها على حياة المصانع التى يقضى العامل فيها اثنتى عشرة ساعة من كل يوم . وعندى أن أهل البدو من العرب ، مع بقائهم على الفطرة ، وعدم تحولهم قيد أنملة عن الحال الابتدائية التى كانوا عليها منذ أقدم العصور ، أفضل من جميع أمم الرعاة فى العالم» ، وأن مبادئهم تُعادل «مبادئ كثير من الأوربيين العربيقين فى الحضارة» . ويرى أن البدوى لا تستهويه سوى ظواهر الأمور ، وتبهره الضوضاء والبهرجة ، ولم يُعان ما عاناه الرجل المتمدن من التحول المتراكم بتوالى الأجيال . حيث إن العرب (بدو وحضرا) أقل تحولا من الأوربيين بين قرن وقرن ، ولكن تحول أهل الأرياف والبدو كان ضئيلا ، بينما تحول أهل الحضار أظهر من ذلك .

والبدوى نشيط ، لوجوب كسب عيشه بنفسه ، وهو صبور ، حيث يحتمل ما لا يحصى من الآلام والمحن ، وهم متمثلون فى أمور العز والشرف لتمائل أحوالهم ومشاعرهم ، ويقوم فخرهم على السيف والبلاغة ، فبحد سيفه يصون البدوى حقوقه ، وببلاغته يحسم ما لا يقدر عليه السلاح من الخصام .

ولو تحدثنا عن حياة هؤلاء البدو وعاداتهم ، فحياتهم بسيطة للغاية ، فيمتطى البدوى فرسه وقت الفجر ، ولا يرجع إلى خيمته إلا وقت الغروب ، ويتناول فى النهار التمر وقليل من الذرة ، ويرعى فرسه بالكأ الذى يجده فى طريقه ، فإذا دخل خيمته عشاء ناولته زوجته كوب لبن وقليل تمر وعسلا . والبدوى على خلاف الفلاح «الذليل» ، فخور بحريته ذا خطوات ثابتة ، ولا يُصاب بما يصاب به الفلاحون من الأمراض لقناعته وحياته المنظمة ، ولا يذهب البدوى إلى المدن إلا لبيع ما تنتجه مواشيه وإبله ، ولا يرغب فى المبيت فى المدن .

أما النساء البدويات، فيهتمن بحلب الشياه والبقر، وصنع الدقيق والخبز والطعام، وتربية الأطفال، وحياسة الثياب والخيام، وإذا عزمت القبيلة على الرحيل ركبت البدويات الهوداج اثنتين اثنتين.

وتقع خيمة الرئيس فى الوسط، وتليها خيام أبنائه المتزوجين، فخيام الأقرباء، فخيام الخدم، وتكون الأفراس أمام الخيام لتكون حاضرة عند أول إشارة، ثم تليها حظيرة الإبل والضأن والماعز. وتشتمل الخيام على متاع بسيط ملائم للحياة البدوية، مثل الأسلحة وأدوات الطعام.

ويتطرق جوستاف لوبون بعد ذلك إلى الحديث عن البدو فى سوريا، فيذكر أنهم يعتمدون فى معاشهم على النهب ومهاجمة القوافل والسياح الذين لا يدفعون لهم الإتاوة، ويهتمون بتربية المواشى، ومن أخلاقهم الشره، وإكرام الضيف. ولم يقدر أحد على إلزام هؤلاء البدو بتترك البادية التى تعودوا الحياة فيها منذ قرون، ورفضوا كل أرض عُرضت عليهم ليستقروا بها، وامتنعوا عن أى عمل زراعى.

أما بدو مصر، فى عهد الاحتلال الإنجليزى، فكانوا أهل حرب وشراسة، وخاف منهم الإنجليز، ولكنهم اشتروا حيادهم بما يريده البدو. والبدو يعيشون فى الصحارى الرملية القريبة من ضفتى النيل، وقلما يخشون جانب الحكومة، ولا صلة بينهم وبين الفلاحين الذين يبغضونهم. وحياتهم كحياة بدو شبه الجزيرة العربية، «فالعربى البدوى هو أينما حل وحيثما اتجه».

ويجدر هنا إلقاء الضوء بصورة أوضح عن بدو سيناء فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى^(١)، وهو الوقت ذاته الذى كتب فيه لوبون عن بدو مصر. كان يصعب على مجتمع بدو سيناء أن ينقاد لغير سلطة مشايخ القبائل، لهذا كانت محاولة بسط السلطة المركزية على هؤلاء البدو تلاقى صعوبات كبيرة، فالسلطة فى المفهوم القبلى هى فقط لشيخ القبيلة. وكان يتم تفسير محاولات الحكومة المصرية منذ بداية القرن (١٩م) لبسط نوع

(١) أفرد صبرى العدل بحثا كاملا عن بدو سيناء خلال القرن (١٩م) وعلاقتهم بالسلطة، وهو ما لخصناه فى السطور التالية فى متن البحث. راجع «بدو سيناء والسلطة خلال القرن التاسع عشر»، فى كتاب «الرفض والاحتجاج فى المجتمع المصرى فى العصر العثمانى»، تحرير: ناصر إبراهيم، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية - كلية الآداب - جامعة القاهرة، ٢٠٠٤م.

من الهيمنة على هؤلاء البدو في إطار الحد من ممارسة عاداتهم وتقاليدهم، ومن ثم سلب حريتهم في التنقل، لأن الخضوع لسلطة مركزية كان يعنى الاستقرار في إطار وحيز مكاني ليتمكن رجال الإدارة من فرض هذه السلطة.

وقد عملت الحكومة المصرية على تغيير خريطة توزيع القبائل في سيناء وتوطينها في مناطق بعضها خارج سيناء، أو الاحتفاظ بنخيلها الذي تأتى إليه وقت الحصاد لجمع الثمار ثم تعود إلى مناطق سكنها الجديدة.

وكانت هناك حركات رفض متعددة للبدو على السلطة الحاكمة، مثل:

١ - الاحتجاج لدى الحكومة، وذلك عن طريق الشكاوى بسبب فرض عوائد صحية على حيواناتهم عند دخولها الأراضي المصرية، واستغاث البدو أيضا من إغارات بدو الحدود الشامية، والمطالبة بحمايتهم منهم. ولكن هذا الاحتجاج كان ضعيف التأثير في بعض الأحيان على الحكومة، لأننا نجدها تطبق القوانين التي يشكو منها هؤلاء البدو، ولكنها في الوقت ذاته عملت على إزالة أسباب الشكوى إذا ما أحست بخطورة الموقف وتأثير القانون على الأمن في سيناء.

٢ - الهروب من مواجهة السلطات المحلية، وكان يتم - في الغالب - خلال فترات التعداد العام الذي ارتبط في أذهان البدو بفرض ضرائب جديدة أو أنه محاولة لإخضاعهم للعسكرية.

٣ - مقاومة رجال السلطة الحكومية باستخدام القوة والعنف، ويتم هذا في الغالب عندما يشعر البدو بضعف القبضة الحكومية عليهم أو حينما يتم تضيق الخناق عليهم عن طريق التعسف في فرض القوانين واللوائح الحكومية للأجهزة الإدارية الموجودة في سيناء كنقاط الحجر الصحي أو النقاط الجمركية.

٤ - المشاركة في الحركات المناهضة للسلطة.

وهذه الوسائل الأربع كانت تتفق وطبيعة المجتمع البدوي بصفة عامة، فالفرار من وجه السلطة إلى الجبال يعكس حياة الترحال التي يهواها البدوي، واستخدام العنف لمناوئة السلطة يعكس الطبيعة البدوية للبدو، الذي يقوم بحماية نفسه ولا يلجأ إلى غيره في حمايته، وهذا يدل أيضا على شجاعته.

أما في غربى إفريقيا، فيذكر لوبيون أن البدو متمردون على كل حضارة، كالبدو في كل قطر، وهم أقل تمازجا وانحطاطا من حضريى العرب. ولكنهم يتفوقون على مقت الأوربيين القاهرين لهم وحقدهم عليهم.

وإذا أردنا مقارنة انطباعات جوستاف لوبون وآرائه بآراء المؤرخين العرب، نجد أن ابن خلدون هو أهم من تناول البدو في كتاباته، فيصفهم ابن خلدون بأنهم شجعان، ولكنهم يعيشون على نهب أموال غيرهم من الناس سواء كانوا بدوا أو حضرا، وهم على خلق ولكنهم قطاع طرق، وهم أهل خير ومروءة. وهم أيضا سفاحون يعشقون الحرب وسفك الدماء. وهم أهل فطرة يبغضون الابتذال، ولكنهم ليسوا أهل علم ولا فن، وهم أهل شرف ويهبون أرواحهم لنجدة المرأة وحماية شرفها، ولكنهم يعيشون من كدها وعلى ما تقوم به من أعمال، وهم يحتقرون كل عمل يدوي، ويحتقرون ممارسيه، ويسأمون الزراعة والفلاحين، ولكنهم من أجل أن يعيشوا ينهبون خيرات تلك الزراعة، وكان أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة لأن النفس تميل إلى أقرب النفوس إليها، بينما أهل الحضرة يميلون إلى الشهوات الدنيوية فأصبحوا أشرار، ولهذا يسهل علاج أهل البدو عن علاج أهل الحضرة.

ويرى ابن خلدون أن العصبية تلعب دورا حاسما في العمران البدوي، حيث تقوم بمهمة القوة الموحدة للجماعة البشرية، أو بمعنى دقيق الانتماء، وأن طبيعة البداوة تؤثر على خصائص العصبية ودورها في الصراع من أجل البقاء وأسلوب الحياة المتميزة بالفقر المدقع يطبع العصبية بسمات ملائمة لهذه الظروف وتتمثل في التحفز والعنف، والعصبية حيوية في حالتها الدفاع والهجوم، ولها دور في تسوية العلاقات الداخلية وكبح جماح الأشرار الخارجين على الجماعة.

ولابد من الإشارة إلى الفارق الزمني (خمسة قرون تقريبا) بين المؤرخ وعالم الاجتماع الكبير ابن خلدون، وبين المستشرق جوستاف لوبون، والنظرة الاجتماعية التحليلية لهما، وخاصة أنهما من علماء علم الاجتماع الكبار، بالإضافة إلى التغيرات التي حدثت للبدو بمرور الأيام، واختلاف السلطات الحاكمة للبلاد.

وبعد هذا الاستعراض لصورة البدو عند جوستاف لوبون، يتبقى لنا عدة ملاحظات: حديث جوستاف لوبون هو صورة للواقع البدوي في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، مع وصف له عبر عدة قرون سابقة لها، وقد لا تكون هذه هي صورة البدو الآن، ولكننا نعتقد أنها صورة مشابهة لهم لفترة طويلة لاحقة لكتاب لوبون، حيث ظل العالم العربي قابعا تحت نير الاحتلال (بجميع جنسياته)، وكان همه الأول التحرر من قبضة الاحتلال، وليس تغيير عاداتهم وتقاليدهم.

تمتاز كتابات لوبون بالتحليل العميق لعادات الأقوام موضع البحث والدراسة، وساعده في هذا اهتمامه بدراسة الحضارات القديمة والحديثة، ودراسة ظاهرة الاحتكاك الحضارى وآثاره، ونجد هذا فى مقارناته بين العربى البدوى والعربى الحضرى، وبينهما وبين الأوربى، مما أثرى البحث وعمقه.

بالرغم من فرنسية المستشرق جوستاف لوبون، والمعروف أن العالم العربى اقتسمه الإنجليز والفرنسيين، فإن كتابات لوبون اتصفت بالموضوعية، ولكن ظهرت رغبته فى معرفة مدى الفارق الحضارى بين الشعب والمحتل، أى بين العرب (سواء كانوا بدوا أو أهل المدن) والأوربيين، ولم ينس معرفة آراء العرب عامة فى الأوربيين، حيث يذكر أنهم عامة اتفقوا على مقت الأوربيين القاهرين لهم وحقدهم عليهم.

مطابقة أغلب آراء جوستاف لوبون مع آراء ابن خلدون، ولكنه لم يقدم أى أسباب للعادات والتقاليد البدوية، بينما تناول ابن خلدون البيئة البدوية تناولا سيكولوجيا.

قلة حديث لوبون عن المرأة البدوية، فهو لم يخصص فى كتابه عنها، إلا عدة أسطر قليلة، دون أن يوضح دورها فى المجتمع البدوى، وفى تنشئة أبناء البدو.

لا بد أن نتساءل هنا، هل قيمة العنف والنهب قصر على البدو فقط دون أهل الحضر، أم أنها عادات مشتركة، وإن كثرت قليلا فى البدو عن أهل الحضر، ولكننا لا بد أن نؤكد أن ليس كل البدو بهذه العادات السيئة، وإلا لم يكن الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ليوصى أصحابه خيرا بالأعراب، قائلا: «أوصيكم بالأعراب، فإنهم أهلكم ومادكم وإخوانكم وعدو عدوكم وهم أصل العرب ومادة الإسلام».

تجدر الإشارة إلى أن لوبون لم يتناول العادات والتقاليد السيئة فقط، لإبراز البدو بصفة سيئة أمام الغربيين، ولكنه تناول أيضا الصفات الحسنة للبدو.

